المقدمـــــة:

يمكن الزعم بأن مفهومى الزمان والمكان يمثلان بعدين أساسين فى عمليـة المعرفة، على الرغم من غيابهما المباشر عن إطار نظرية المعرفة، منـذ بدايـة الفكر الفلسفى، ذلك لأنهما يشكلان مفهومين محددين للرؤية الفكرية التى تحكم أى مذهب من المذاهب، وأية ثقافة من الثقافات، وبالنظر إلى المؤثرات التى يمارسها كل من الفكر والثقافة على المجتمعات يصبحا – أى الزمان والمكـان – محـددين لكثير من العادات والسلوكيات البشرية، الأمر الذى يعنى إمكان النظر إلى تـاريخ الفكر الفلسفى عبر عصوره المختلفة، على الرغم من تنـوع المـذاهب والـرؤى الفلسفية، من منظور ميتافيزيقا المعرفة خلال الطرح الفلسفى لمفهـومى الزمـان والمكان.

لقد كانت النظرة الاستاتيكية، التى تؤمن بالثبات وتـرفض التغيـر، هـى النظرة السائدة التى تسيطر على الرؤية المعرفية إبان العصور القديمة والوسطى، وقد أنتج هذا الوضع الرؤية الأرسطية التى تمثل قمة الهرم الفلسفى اليونانى، مـن خلال المنطق الصورى، الذى وضع الحدود والقوانين التى ينبغى اتباعها إذا أردنا الوصول إلى التفكير السليم، وتجنب الوقوع فى الخطأ، وهو المنطق الذى وضـع مفهوم الحقيقة بوصفها كائناً خرافياً يستعصى على المعرفة، وكلمة ملغـزة مليئـة بالأحاجى، لا يستطيع الوصول إليها إلا القلة النادرة من العقلاء، محبى الحكمـة، الذين يدرءون التغير، ويرفضون الصيرورة، ويؤمنون بالعقل الخالص، وما ينتجه من معرفة، ويرفضون الحواس ومنتجاتها المعرفية، ويرونها غيـر موثـوق فـى صحتها على الإطلاق، فأصبح قانون "الهوية" ومستنسخاته المنطقية عبر تداعياتها الفكرية المختلفة داخل الكيان المنطقى الأرسطى بمجمل تداعياته الصـورية هـى المسئولة عن صياغة الرؤية المعرفية إبان الحضارة اليونانية، بل امتدت سـطوتها لتشمل العصور الوسطى المسيحية والإسلامية، التى كان فيها أفلاطون وأرسـطو هما الحكيمان اللذان لا يرد لهما كلمة، ولا يخـالف لهمـا رأى، لـيس لسـطوة

شخصيتهما، ولا لقوة براهينهما، بل – أعتقد – لأن رؤيتهما الفلسفية المنطقية، ظلت متواكبة مع رؤية العصر حول مفهومى الزمان والمكان.

وترتبط الفكرة العامة لمفهومى الزمان والمكان – عادة – بسياق الرؤية العامة لمفهومى الذات والموضوع – من حيث كونهما طرفا عملية المعرفة، حيث الذات العارفة (الإنسان) فى مقابل الموضوع المعروف (العالم) هما اللذان يحددان طبيعة المعرفة، وتطوراتها، من خلال تأثيرات تبادلية لا تنقطع، بل تخضع لعملية دينامية مستمرة، استمرار الإنسان والعالم- ويؤثر كل منهما فى الآخر تأثيرًا كبيرًا بحيث يشكلان الرؤية الشاملة للمعرفة ، وهو الأمر الذى يتجلى بوضوح عبر المحاولات العلمية والفلسفية التى بدأت تظهر فى أواخر العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة الأوروبية عبر كوبر نيقوس Copernic(١٤٧٣-١٥٤٣)، وجاليليو Galileo(١٥٦٤- ١٦٤٢) ، وديكارت Descartes(١٥٦٩-١٦٥٠) ، وفرنسيس بيكون (F) Becon(١٥٦١-١٦٢٦)، ثم عبر جون لوك (J) Loke (١٦٣٢- ١٧٠٤) ، وديفيد هيوم (D) Hume(١٧١١ – ١٧٧٦) ، وإيمانويل كانط (I) Kant(١٧٢٤ – ١٨٠٤) ، وتتجلى بوضوح فى صياغتها العلمية عبر "ميكانيكا نيوتن"، وعبر الحركة الجدلية للأشياء فى طريقها نحو "المطلق" عند "هيجل" Hegel(١٧٧٠ – ١٨٣١) وإنعكاساتها المادية عند "كارل ماركس" (Karl) Marx(١٨١٨- ١٨٨٣)، وكذلك مفهوم "الحتمية" و "العقل" الذى بدأت مكانته – وفقاً لمفهومه ودوره القديمين – تتزعزع فى نهايات القرن التاسع عشر من خلال إرهاصات فلسفية تهدف إلى طرح نسبى جديد لمنتجات المعرفة، ولظواهر الكون، ثم صياغته عبر نظرية النسبية "لأينشتين" Einstein(A)(١٨٧٩- ١٩٥٥) التى تعد ثورة على الرؤية الاستاتيكية القديمة لمفهومى الزمان والمكان، والتى أتت عبر أزمة الفيزياء الحديثة، أو أزمة فيزياء "نيوتن" Newton(١٦٤٢- ١٧٢٧) التى لم تعد قادرة على إدخال كثير من الاستثناءات الفيزيقية، والظواهر الطبيعية فى منظومتها النيوتونية، وجاءت نظرية النسبية لتشملها جميعها من خلال نظرة جديدة لهذين المفهومين، وقد واكب هذا

تطورات متشابهة طرأت على علاقة الذات بالموضوع فى العملية المعرفية، وما نتج عن هذا من رؤية جديدة للعقل بوصفه أداة معرفية ودوره فى صياغة المنتج المعرفى وهو الأمر الذى طرح بدوره رؤية جديدة لطبيعة "الحقيقة"، ومفهوم "الصدق" أو "الحق".

كانت البراجماتية إحدى المذاهب الفلسفية التى تأثرت بهذه التطورات اللاحقة وشاركت بدورها فى صياغة رؤية فلسفية حول نظرية المعرفة تمكنت خلالها من طرح صياغات جديدة حول طبيعة العقل ودوره، وطبيعة المعرفة ودورها، ورؤية للعالم وللذات الإنسانية وهى صياغات يمكن أن تنتظم جميعها تحت نظرية معرفية، قد نختلف مع أطروحاتها الأساسية أو نتفق، ولكن لا يمكن فى نهاية الأمر أن ننكرها، وهى رؤية للمعرفة قد أثارت اعتراضات عديدة، وكانت محل نقاش ربما لم ينته، بين مؤيد ومعارض، وهو والأمر الذى يؤكدها وهو ما تسعى إليه الباحثة عبر هذه الدراسة.

تعد البراجماتية اتجاهًا معاصرًا يعبر عن الحضارة الغربية فى كثير من جوانبها بالقدر الذى يعبر به عن ثقافة مجتمع هو المجتمع الأمريكى. فمن ناحية كان المجتمع الأمريكى الناشئ بما يحمل فى داخله من ثقافات متعددة تمكن من صهرها فى بوتقة واحدة طامحاً إلى صناعة مجتمع جديد على نسق غير مسبوق يحمل فى طياته أحلام أفراده التى تعاقدت ضمنياً فيما بينها على إنشاء هذا المجتمع. ولقد تمكن المجتمع الأمريكى فى فترة وجيزة من تحقيق هذا الحلم بدرجة كبيرة، ولم يعد أمامه إلا التعبير عن هذا الإنجاز الذى تحقق من خلال فلسفة تكشف عن عناصر هذا التحقيق وتكرس له، وكانت هذه الفلسفة هى البراجماتية أو العملية والواقعية.

ومن ناحية أخرى كان لتطور العلم وللمكانة الكبيرة التى أخذ يحتلها على كافة المستويات، ولتجلياته التطبيقية أثرًا كبيرًا فى إعادة النظر فى كثير من الأمور المتعلقة بتاريخ الفلسفة ودورها خاصة بعد حملة التشكيك التى قام بها

الوضعيون – بمختلف اتجاهاتهم – وكذلك التجريبيون فى قيمة الفلسفة وأهميتها للإنسان من حيث هو فرد فى مجتمع، وأعلن الكثير منهم أن الفلسفة بصفتها تجليات نظرية للعقل الإنسانى قد انتهت مرحلتها وأن الغلبة الآن للعلم وتجلياته، وساعدهم على ذلك تلك المنجزات العلمية التى تحققت فى فترة وجيزة من الزمان لم تستطع الفلسفة رغم تاريخها الطويل أن تنجز – عمليًا – مثيلاً لها.

ومن هنا كان على المؤمنين بأهمية الفلسفة وقدرها، البحث عن تمثلات جديدة للفلسفة تعطى العلم حقه دون أن تغفل قيمة الفلسفة من حيث هى نشاط إنسانى أصيل.

ولاشك أن البراجماتية كانت إحدى هذه التمثلات الجديدة التى وضعت الفلسفة على خريطة الفكر المعاصر باعتبارها نصيراً للعلم لا خصم له، وأكدت على عدم التعارض بينهما من حيث هما انجازان للعقل الإنسانى، ولعل أهم ما يلفت النظر فى البراجماتية هو تلك الرؤية الجديدة لمعيار الصدق المنطقى، بمعنى آخر تلك الرؤية الجديدة التى طرحت باعتبارها نظرية فى المعرفة تمكنت من استيعاب ذلك الصراع الدائم بين العقل والحس ووضعت حداً لذلك الجدل التاريخى بين المثاليين والتجريبيين. تلك الرؤية التى احتوت فى طياتها مضمونًا جديدًا كل الجدة تمكن من الولوج عبر الماضى والحاضر إلى المستقبل.

وتأتى أهمية دراسة نظرية المعرفة البراجماتية والوصول إلى العناصر التى تحكم رؤيتها الفلسفية بوصفها المحور الرئيسى الذى يرتكن عليه أى مذهب فلسفى، ولكون نظرية المعرفة هى الوسيلة الناجحة للكشف عن أساليب وطرق تفكير مجتمع ما فى عصر ما، بل ومرتكزات المجتمع الآتية، وتصوراته للواقع والعالم، وهو أمر لاشك يعد ضروريًا من الناحية الفلسفية وكذلك من الناحية الاجتماعية، وذلك للارتباط والتماس القوى بين آراء الفيلسوف وثقافة المجتمع السائدة سواء بالسلب أو الإيجاب، وهذا إلى جانب ما لدراسة الفلسفة من أهمية على الصعيد المعرفى والإنسانى، بوصف الفلسفة البراجماتية خطوة هامة نحو

رؤية الإنسان لواقعه، تعبر عن تطورات عصر شهد عديد من الأزمات العلمية والفكرية، مثلما شهد عديد من التطورات، وهى إحدى الشهادات الهامة على ذلك العصر بكل تجلياته السياسية والاجتماعية والثقافية ... الخ، وهى رؤية كان لها أكبر الأثر داخل المجتمع الأمريكى وعلى المستوى العالمى ليس فقط على المستوى الفلسفى، بل والأخلاقى والقانونى والسياسى، وعلى مستوى الدراسات العلمية الإنسانية لفترة طويلة، حيث طرحت صيغة فلسفية تميزت بكثير من الجدة والطرافة، وأثارت نقاشات عديدة، أثرت بها الحياة الثقافية على المستوى العالمى، وأصبح لها مؤيديها فى مجتمعات عديدة.

لقد حاولت الباحثة خلال أطروحتها أن تجمل عناصر نظرية المعرفة عند البراجماتية من خلال اثنين من كبار فلاسفتها وهما "وليم جيمس"، و "جون ديوى" على نحو يؤكد وجهة نظرها لتطور نظرية المعرفة من خلال عرض لبعض المساهمين فى صياغة الأسس الفلسفية لنظرية المعرفة مثل جون لوك، وديفيد هيوم، وإيمانويل كانط، ثم عرض للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى أنتجت المجتمع الأمريكى وثقافته، نظراً لأهمية هذه الظروف وتأثيرها المباشر على الإنتاج الفلسفى والثقافى للمجتمع الأمريكى، وأثر ذلك فى إنتاج الفلسفة البراجماتية على وجه خاص، وعلاقة ذلك بالتطور المعرفى العلمى والفلسفى الذى شهده العالم إبان عصر النهضة، والعصر الحديث، وأثره على الفكر الفلسفى عبر تمثلاته المختلفة، تأكيدًا على أن المنتج الإنسانى بمختلف تجلياته الفكرية والمادية هو نتاج تلك العلاقة الجدلية بين الإنسان والعالم، وهو سريعًا ما يدخل – المنتج الإنسانى – ضمن هذه العملية الجدلية معرباً عن تجليات إنسانية جديدة تؤثر فى العالم وتتأثر به فى علاقة تفاعلية مستمرة ودائمة.

لهذا ستكون "ذرائعية المعرفة فى الاتجاه البراجماتى" موضوع البحث والدراسة من خلال المنهج التحليلى النقدى وكذا المنهج التاريخى باعتبار أنه من الصعوبة بمكان الوقوف على منهج بعينه فى تلك الدراسات التى تتعلق بالفكر الإنسانى، ولعرض الموضوع بشكل متكامل ما أمكن ذلك.

وتشتمل الدراسة على أربعة فصول:

<u>الفصل الأول</u> وهو بعنوان: البراجماتية... واقع مجتمع وعصر.

وتعرض فيه الباحثة لمجموعة من النقاط التى تحيط بهذا العنوان وتشتمل على:

- تمهيد.

أولاً: البراجماتية ... واقع مجتمع:

أ- نشأة القومية الأمريكية.

ب- سمات المجتمع الأمريكى.

جـ- تطور الفلسفة فى أمريكا.

ثانياً: البراجماتية ... واقع عصر.

<u>الفصل الثانى</u> وهو بعنوان: نظرية المعرفة وتطورها.

فتطرح فيه الباحثة بداية الصياغة الواعية لنظرية المعرفة ونقد العقل من خلال مجموعة من النقاط وهى:

- تمهيد.
- جون لوك.
- ديفيد هيوم.
- إيمانويل كانط.
- الطريق نحو البراجماتية.

<u>الفصل الثالث</u> وهو بعنوان: البراجماتية نظرية جديدة فى المعرفة.

ليطرح الجزء الأول من مفهوم نظرية المعرفة عند البراجماتية من خلال رائدها "وليم جيمس" عبر مجموعة من العناصر الفلسفية الرئيسية لديه وتتمثل فى:

- تمهيد.
- معنى العقل.
- معنى الحق.
- مفهوم العالم.
- موقف جيمس من المشكلات الفلسفية التقليدية.

- تعقيب.

<u>الفصل الرابع</u> وهو بعنوان: الذرائعية ... تطور لنظرية المعرفة البراجماتية.

فيطرح الصياغة البراجماتية لنظرية المعرفة عبر تطورها الذرائعى عند "جون ديوى" بوصفه الفيلسوف البراجماتى الذى تمكن من صياغة نظرية معرفية ذات أسس وعناصر فلسفية محكمة، وكان ذلك عبر مجموعة من النقاط الرئيسية التى تتناول نظرية المعرفة لديه وتتمثل فى:

- تمهيد.
- العقل والجسد.
- الخبرة والتحقق.
- الفكر والعمل.
- المعرفة ونظرية البحث.
- تعقيب.

<u>الخاتمة</u> لتطرح أهم النتائج التى بلغها البحث عبر فصوله الأربعة من خلال مجموعة من النقاط التى تؤكد عليها الدراسة منذ الوهلة الأولى وعبر فصولها حيث تطرح الرؤية البراجماتية لنظرية المعرفة ومبرراتها وعناصرها الرئيسية.